كتاب دليل الطقسيات المارونية

تاريخ الكتب الطقسيَّة عموماً والكتب الطقسيَّة عند الموارنة خصوصاً

للخوري ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني

اطلعنا على كتاب لحضرة الخوري ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني في طقوس الكنيسة المارونية قد رفعهُ الى المقام البطريركيّ الجليل فتنازل غبطتهُ واجاز بطبعهِ فاحببنا ان نتحف قرَّاءنا بباكورة هذا الكتاب ملخصين عن مقدَّمتهِ تاريخ الكتب الطقسيَّة عموماً وكتب الموارنة خصوصاً ل . ش

من المعلوم ان الطقوس والاحتفالات الدينيَّة قديمة كقدم الدين وهذه الحقيقة مبنيَّة على طبيعة الانسان على ما قال القديس توما اللاهوتي فان الانسان المركب من نفس وجسد يتسلَّى من معرفة المحسوسات الى معرفة غير المحسوسات وقد رسمت حكمة الله هذه الواسطة رعايةً لضعفنا

بناء على ذلك نرى هابيل في العصر الاوَّل قد ضحَّى لله الضحايا ثم ابتدأ انوش يدعو باسم الله بهيئة حافلة فكان اوَّل ممثل للعبادة المشتهرة وجاء الآباء كنوح وملكيصادق وابراهيم والآباء الاقدمين عموماً يكرمون الله بضحايا وحفلات دينيَّة واعياد . واذا تتبعنا تاريخ الطقوس المقدسة رأينا ما يؤيد دعوانا في عهد الشريعة الموسوية فان الله القى الى موسى طريقة الطقوس المقدسة وتهدد بالعقاب الصارم من لا يكترث لرعايتها

ولم تكن تلك الطقوس لتدوم بعد مجيء المخلص اذ رسم احتفالات وطقوساً تضرب على الطقوس الموسويَّة وبدل تضحية الحيوانات بتضحية ذاتهِ ورسم الاسرار مصدر النعم التي اغنت بيعتهُ ولمزيد اعتباره لها عيَّن بذاتهِ مادَّتها وصورتها واخصَّ ربّها واحتفالاتها فسلم بعض ذلك مكتوباً وبعضهُ مشافهةً كما قال القديس باسيليوس (١ . وبناء على ما تقدَّم رتب الرسل الطقوس على مثال ما رسمهُ لهم المخلص وزادوا في رونقها بالمهام التي فوضوا اساس الليتورجيات وقد اشار مجمعنا اللبناني الى مجمل ما نحن في صددهِ في الباب الثالث عشر العدد السادس بقولهِ:

١) في الفصل ٢٧ من مسيرهِ على الروح القدس الذي ارسلهُ الى امفيلوكوس (طالع منارة الاقداس للعلَّامة الدويهي المجلد الاول الصفحة ٢٩)

« ولمّا كان الطبع البشري بحيث لا يحد من السهل عليهِ ان يسمو الى التأمل في الامور الالهيّة ما لم يستعن بالوسائل الخارجيّة كان ان الكنيسة الأمّ الحنون قد رسمت بعض طقوس من مثل ان تمس في القداس ببعض البقَر المخلوة وتجمر بتيرها صوتاً واستعملت بعض احتفالات كالتبريكات السرية وايقاد الشموع واحراق البخور واتخاذ الملابس وكثيراً مما يشاكل ذلك تابعة فيهِ نظام التهذيب الرسولي والتقليد »

ثم ان الكنيسة وضعت ما تسلمتهُ بالتقليد من الرسل ضمن كتب طقسيّة وصلت الينا مع توالي الزمان وعلّقت على هذه الكتب شروحاً لاتقان الحركات الطقسيّة على وتيرة واحدة يتبعها الجميع فلا ينفرد احد الاشخاص الطقسيّين عن الآخر بشيء على حسب هواه . قال مجمعنا اللبناني في العدد السابع من الباب المتقدم ذكرهُ اعلاه :

« يتعيّن على الكهنة ان يكونوا محيطين علماً ومعرفةً بالاحتفالات والطقوس المقدّسة وعليهِ فتتقدّم الى الرسامة الحقيين وغيتهم ان يخرجوهم فيها من قبل ان يرقوهم الى درجة القسوسيّة لانهُ يجب على الجميع ان يرعوا نظاماً واحداً بيتهِ سواء كان القداس ذا حفلة او عادياً ولذلك تحتّم على الزائرين من اهل النظر والوقوف الذين يعيّنهم الاسقف ان يمتحنوا الكهنة في معرفة اصول الاحتفالات ويدرّبوا الجهلة منهم على رعايتها من طريق التخريج والتهذيب »

ولقائل ما هي الكتب الطقسيّة التي تبحث عمّا تقدّم ؟

فالجواب على ذلك ان هذه الكتب كانت قليلة العدد في اجيال الكنيسة الاولى ولم تكن على الحالة التي صارت اليها فيما بعد فكانت تنحصر في قسمين كتاب الفرض وكتاب القدّاس وكان كتاب الفرض اولاً عبارة عن منتخبات من الاسفار النبويّة من العهد القديم وبعض فصول من الاناجيل والرسائل يقرؤنها في مجتمعات المؤمنين وقد ذهب البعض الى القول بنفي وجود كتب طقسيّة في الاجيال الاولى تعيّنت فيها صور توزيع الاسرار غير انهُ لا يمكن التسليم بهذا القول على اطلاقهِ والقطع بعدم وجود كتابة من هذا النوع ممّا يُظنّ ان الرسل ومَن خلفهم توًّا لم يكتبوا كتاباً طقسيا بل ان الصلوات وصور توزيع الاسرار انتقلت مشافهةً

واما ما ورد في التواريخ عن الامر الذي اذاعهُ ديوكليسيانوس بوجوب البحث عن الكتب البيعيّة واحراقها فهذا لا يُستدلّ منهُ على وجود كتب رتب من النوع الذي نطلق عليهِ الآن اسم الطقسيّات (rituel) او كتاب اسرار البيعة (ܪܙܐ ܕܥܕܬܐ) كما دعاها الدويهي بل المراد على الارجح من هذه الكتب التي أمر باحراقها كتاب القداس وكتاب الفرض

ثم ان العالم الاب لوبرون (Lebrun) الطقسيّ ذهب الى نفي وجود كتب خاصّة بتوزيع الاسرار في الاجيال الاربعة الاولى . ومع اعتبار العلماء لآرائه بقوا على ريب من صحّة مذهبه . ولمّا بزغ الجيل الخامس وهدأت نيران اضطهادات القياصرة كثرت الكتب الطقسيّة من هذا النوع الاخير وغيره فانّ القديس جلاسيوس الذي رقيّ كرسيّ القديس بطرس سنة ٤٠٢ وضع كتاباً في التبريكات وفي الرتب التي تطلق عليها اسم شبه السرّيات

ثم ان الكنيسة اليونانيّة التي كان تفضّل عليها كيرللس الاورشليمي بمامر التعليم المسيحي اتحفها تاوادورس السيساطي وكيرللس الاسكندري في الجيل الخامس بكتب طقسيّة . ثم ان البابا غريغوريوس الكبير قد اضاف في الجيل السادس الى مؤلف البابا جلاسيوس رتباً اخرى ومذ ذاك العصر صار في الكنيسة كتب طقسيّة بالحصر

ولم تخلُ الكنيسة السريانيّة في الجيل الرابع من آباء قديسين وعلماء وضعوا لها كتباً طقسية كالقديس افرام وغيره . ثم ان ساويرس البطريرك الانطاكي الدخيل في الجيل اخذ يؤلف ويجمع كتباً طقسية قبل الانفصال . وعقبهُ في الجيل السابع بعد السادس الانفصال يعقوب الرهاوي الذي تفرّغ لهذا الفنّ بجدّ غريب

امّا عدد الكتب الطقسيّة في طائفتنا المارونيّة الان فهو ما يأتي :

١ً كتاب القدّاس ٢ً كتاب القرض ٣ً كتاب خدمة القداس ٤ً كتاب الجنازات (التوبسة) ٥ً كتاب الطقوس بقسميه ٦ً كتاب الحجريات (اي الشرطونيّة والتكريسات) ٧ً كتاب السنكسار ٨ً كتاب القراءات من العهدين ٩ً كتاب رسائل القديس بولس ١١ً كتاب الحسابات

ولمّا كانت هذه الكتب تستدعي نظر الباحثين من حيث ترتيب مواضيعها واصلاح مناراتها اي الشروح المعلّقة عليها لذلك رأينا ان نبسط الكلام فيها فيظهر للقاري جليًّا الغرض من وضع كتاب بهذا الصدد مراعاةً لما ورد في المجمع اللبنانيّ في الباب الاوّل من القسم الثاني العدد الثاني

« لا يبدّل الكاهن الطقوس اليعيّة المقبولة لاخرى جديدة على حسب هواه ولو كانت من

طقوس كنائس باخرى ولذا فليكن نصب عينيهِ وبين يديهِ كتاب الطقسيَّات ليتسنَّى لهُ القيام بخدمتهِ كما يجب خلوًّا من ان يزيد او ان يحذف شيئًا »

١ً الكتاب الاوَّل وهو كتاب القداس الالهي

طُبع كتاب القداس الالهي (ܩܘܕܫ ܥܕܬܐ) لاوَّل مرَّة في رومية سنة ١٥٩٤. عمد طابعهُ الى تغيير امور كثيرة فيهِ من حيث التقديم والتأخير في القسم الاول من القداس وهو قداس السامعين او الموعوظين كما سترى شرح ذلك في محلهِ واثبت صورة واحدة للتقديس اخذها عن الكنيسة الرومانيَّة واسقط الصور المختصة بكل نافور على حدة (١ وعلَّق من النوافير المقبولة في الكنيسة السريانية ما يأتي على الترتيب الآتي :

١ً نافور خسطوس او سكستوس ٢ً نافور يوحنا فم الذهب ٣ً نافور القديس يوحنا الانجيلي ٤ً نافور مار بطرس الذي يبدأ بقولهِ (ܐܢ ܐܡܪ) تمييزًا لهُ عن النافور الذي اوَّلهُ (ܚܢܢ) ٥ً نافور الاثني عشر رسولًا ٦ً نافور ديونيسيوس ٧ً نافور كيرللس ٨ً نافور متى الراعي ٩ً نافور يوحنا بن شوشن وهذا طُبع سهوًا كما قال الدبيهي ١٠ً نافور اوسطاتيوس طبع بالسريانيَّة فقط ١١ً نافور مروتا بالسريانية ١٢ نافور مار يعقوب بالسريانيَّة فقط ١٣ نافور مار مرقس بالسريانية ١٤ نافور مار بطرس المبدوء بعبارة (ܚܢܢ) وهذا النافور يمثل حقيقةً رتبة قداسنا القديم في القسم الثاني من القداس اي قداس المؤمنين بخلاف النوافير التي تلوها الآن فقد جرى عليها تغيير وتبديل

غير ان الطابع لم يعلق على الكتاب منارةً مسهبة جليَّة ولمَّا جدد طبع هذا الكتاب لثاني مرَّة الاب اسكندر القبرسي الماروني سنة ١٧١٦ تدارك الامر وعلَّق منارة مسهبة لكنَّهُ خالف بعض شروح معلقة على الطبعة الاولى فوقع ابهام وتشويش في منارتهِ التي نقلت في الطبعة اللبنانيَّة في قزحيَّا مع بعض اصلاحات . ثم ان سيادة الحبر الفضال المطران يوسف الدبس قد تولَّى تجديد طبع الكتاب فتعقَّب بعض مبهمات في منارة الاب اسكندر والمنارة التي عُلقت على طبعة دير قزحيا . ومع ذلك تبقى امور .

١) طالع ما كتبناهُ بشأن هذه النوافير وصور التقديس في مجلَّة المشرق لسنتها السادسة العدد العاشر ص ٤٤٩ والعدد ١٣ من السنة ذاتها ص ٥٦٥ حيث تكلمنا من تأليف العلَّامة الدوجي المدعو (ܥܕܬܐ ܕܡܪܝ ܝܘܚܢܢ)

كثيرة يُفتقر الى ايضاحها ولذا عمدنا الى تسطير منارة وافية تُعلّق على كتاب القداس عند سنوح الفرصة بتجديد طبعهِ بعد اجازتها من غبطة ابينا السيّد البطريرك طبقاً لمراسيم مجمعنا اللبناني المقدس

٣ً الكتاب الثاني وهو كتاب الفرض الالهي

يقسم كتاب الفرض الى اربعة اقسام : الفرض الاسبوعي والفنقيط والتشحشت والحاش (البقية لعدد آخر)

رسالة وجهاء الروم الطرابلسيين

الى البابا غريغوريوس الثالث عشر

طرابلس الشام ٢٦ ايلول ١٥٨٤ (١

نشرها وعلّق حواشيها الاب انطون رباط اليسوعي

تَوطئة

في سنة ١٥٨١ بينما كان الاب يوحنا باطشتا اليسوعي يحثّ بشؤون الطائفة المارونية باسم الكرسي الرسولي ويسعى في نشر الجمع المارونيّ المنعقد سنة ١٥٨٠ في قنوبين (٢ بلغتهُ ارادة الحبر الاعظم غريغوريوس الثالث عشر بأمرهِ بان يغتنم فرصة زيارته للموارنة المتفرقين في لبنان وحلب ودمشق وطرابلس وغيرها فيشافه رؤساء الطوائف الشرقية ويحضهم على الخضوع لرأس الكنيسة المنظور الحبر الروماني . فبذل الاب يوحنا عنايته في انجاز الاوامر وقابل بطريرك الملكيين الانطاكي في دمشق وسعى في مقابلة البطريرك اليعقوبي لكنهُ لم ينل جدوى لاسباب يطول الآن شرحها اخصها ان البطريرك سمعه السرياني المقيم عندئذٍ في رومية استرحم من الحبر الاعظم ان يبعث الى اخيه البطريرك داود والى الطوائف المنفصلة بعثة خاصة جمع يترأسها اسقف لا كاهن بسيط فاجاب البابا سؤله معللاً النفس بامل النجاح . وفي تموز سنة ١٥٨٢ سيم الكاهن دون لاونردو ابيلا (٣ اسقفاً

---

١) مكتبة الصكوك السرية في الواتيكان . Fondo Castel S. Angelo, Arma . VII Documents inédits pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient, T. I, 1er fasc. ; à Paris, chez Picard et fils; à Londres, chez Luzac et C°; à Leipzig, chez Harrassowitz. – Caps . III. n 29 اطلب ايضاً ص ١٨٣ من الكتاب وقد نقلت الى اللغة الافرنسية في القسم الثاني من هذا الجزء الاول صفحة ١٨٦

٢) اطلب الكتاب المذكور الصفحة ١٥٣ الى ١٦٦

٣) بالطليانية (Abele) وباللاتينية (Abela) اطلب كذلك المشرق ١٩٠٣ صفحة ٢٥٦